كـ «مقدمة»

هذه دراسة تتتبع أفكار بعض مثقفينا لترصد معالم الإصلاح عند كل واحد منهم، ولعل ما يجمع هؤلاء جميعًا أن يكون تطلعُهم نحو مستقبل تمنَّوْه يأتي أفضل لأوطاننا العربية / الإسلامية، تأسيسًا على أن هذا المستقبل مرهون بمراجعة دقيقة ... وأمينة لكثير من عوامل التكوين المعرفي التي طبعت أفكارًا وسيّدت سلوكًا ؛ فما بقي صالحًا فعلينا إعادة إنتاجه ليكون معينًا للأجيال القادمة لتكون أفضل، وما كان غير ذلك وجب إبعاده كي لا يقف معيقًا نهضة / تقدم الأمة.

ولم يدّع أحدٌ من هؤلاء أن رأيه هو القول الفصل في هذه المسألة أو تلك، بل قصارى ما أعلنه أنه قرأ وفهم وحاول – عبر قراءته وفهمه – الإصلاح، فإن صحت محاولته فله – بنص القول النبوي – أجران، وإن كانت الثانية فله أجر واحد.

إن محمد عبده، وهو يدخل ميدان الإصلاح، كان مرتكزه الأساس الدين، خاصة حين يتحول إلى طاقة دافعة للتحول / الحراك الاجتماعي !!! فكان الرجل مؤسِّسًا لمبدأ أن النهضة المبتغاة لعالمنا العربي / الإسلامي لن يكتب لها النجاح بعيدًا عن الدين، إذ الدين هو المؤسس الأول، بل الأهم، لنهضة حقيقية تبدأ بمقدمات صحيحة لتنتهي إلى نتائج صحية.

وزكي نجيب محمود شغل نفسه بقضية جعلها محور اهتماماته الثقافية / المعرفية، وهي قضية: كيف تعود الأمة كما كانت دينًا وسياسة وعلمًا، ولهذا بحث الرجل العلل التي بسببها «تخلفنا» وسلّط عليها الأضواء على أمل التخلص منها، فنؤسس – حينئذ – لمجتمع جديد بعيدًا عن «كارثة» ستجيء لو لم نفعل ذلك الآن وبجدية .

وأحمد محمود صبحي استدعى واحدًا من أهم علومنا التراثية القديمة، علم الكلام، آملًا تجديده كدليل على ضرورة إعادة النظر في تراثنا ليحيا مشاكلنا بلغة عصرنا فيضيف طرقًا ووسائل معينة للحل لا معيقة له ؛ فنأخذ «كيف» تعاملوا، لا «مع ماذا تعاملوا».

وفؤاد زكريا أقام فكره الإصلاحي عبر نقد واع للرؤية الدينية عند قطاع كبير من أفراد الأمة، فكان زكريا يقفو خطى / أثر الإمام محمد عبده من حيث اعتبار الدين أساسًا لتأسيس النهضة الإصلاحية، فكان زكريا – هنا – يبين المعالم المرجوة من فكرنا الديني المأمول وجوده بيننا لنحسن التعامل مع مشاكلنا.

وعاطف العراقي، المتوحد المغترب في صومعته الفكرية، الذي عاش، متوحدًا، مع الفلسفة فكرًا وسلوكًا، خرج علينا بمقولات تتغيا الإصلاح للفرد والوطن عبر نحت مجموعة من المصطلحات الاجتماعية الناقدة سعيًا وراء الأفضل، وذلك عبر خبرة طويلة أراد لها ألا تبقى حبيسة الصدر فأرسلها صيحة رجاها ألا تكون في وادٍ غيرِ ذي زرع، إذ الرجل كله أمل في مصر التي لم

يدّخر جهدًا، عبْر عمره الطويل، في سبيل نهضتها عبْر مساعي التعليم والتنوير.

إذًا ... فهذه دراسة تحاول الحفر تحت الجذور لبيان بدايات هذه الفكرة أو تلك ثم تفكيكها تمهيدًا لتفسيرها لنخلص إلى: إما العمل بها، وإما حفْظها في «ذاكرة الأمة» دليلًا على وجود حراك ثقافي زمنها، ما يعني إبقاء الاحترام لها جنبًا إلى جنب الاعتبار للحاضر الذي قد لا تفيده هذه الفكرة، إذ تجاوزها الزمن.

د. سيد عبد الستار ميهوب

المعادي الجديدة

القاهرة